

العلم الجديد والأسس النظرية لما بعد الطبيعة في فيزياء إسحاق نيوتون

الدكتور كريم مجتهد
جامعة طهران

يتحدث المقال عن تطورات عظيمة في الغرب وتأثيرها على مفهوم العلم في العصر الحديث ونظرية إسحاق نيوتون فيما يتعلق بالعلم الجديد والأسس النظرية لما بعد الطبيعة، وفيه تلميح عن دور العلماء والفلاسفة الكبار أمثال كوبرنيك وغاليليه وفرانسيس بيكن ورينه ديكارت وكونت وهنري مور وروبرت بويل وجان لوك وديفيد هيوم؛ ثم يورد حديثنا عن التطور التاريخي للفلسفة في العصر الحديث بالغرب وسيطرة العلم الجديد عليها حيث نرى أن بعض المذاهب كالفلسفة التحصيلية يخضع لهذه السيطرة بنحو ما. ويرى المقال بالنظر إلى التغرب والإنبهار العلمي أن نفي التفكير بأي حجة تصدر، لا ينتهي بنا إلى نفي الفلسفة فحسب بل في الواقع رد العلم نفسه، مهما تم هذا الأمر. ويذكر في المقال أسباب اجتماعية وسياسية ونفسية وثقافية للإنبهار العلمي في إيران في تاريخها المعاصر. ولا يدرك الروح المسيطرة على العلوم الحديثة من الناحية التاريخية لا بد من العودة إلى بداية ظهورها، فالحديث عن القوانين النظرية والأسس الاحتمالية لما بعد الطبيعة في فيزياء (ما في الطبيعة) نيوتون لا يخلو من فائدة. وأخيراً يدرس المقال جانباً من أفكار نيوتون حول الموضوع وخلفيته وما تمخض من تأخير انتاجه على معاصريه والجوانب التي تبناها من أفكاره.

الحديث). ومع ذلك فإن التطور التاريخي للفلسفة في العصر الحديث بالغرب لم يكن في اتجاه سيطرة العلم الجديد على التفكير الفلسفي سيطرة كاملة، وإذا وقع تحت هذه السيطرة في بعض المذاهب كالفلسفة التحصيلية عند اوغست كونت، والتي تعتبر من الأنواع السطحية جداً للتفكير، فإنه لم يعط عملياً من هذه الناحية مفهوماً صحيحاً للفلسفة ولا تصوراً

خضع مفهوم العلم في العصر الحديث بالغرب لتطورات عظيمة، واتضحت بشكل صريح الروح المسيطرة عليه والنظرة والطريقة اللتين تتصلان به بنحو من الأنحاء أضحاً كاملاً نتيجة التحقيقات والتجارب التي قام بها العلماء الكبار أمثال كوبرنيك وغاليليه والفلاسفة أمثال فرانسيس بيكن ورينه ديكارت (الذين وضعوا في الحقيقة أسس التفكير

الصحيح ووسيلة وباعثاً للبحث بالمعنى الواقعي للكلمة (بحيث يمكن باللجوء إليه الرغبة في التأمل والتفكير).

وبناءً على هذه المقدمة، وجدت أن كتابة مقالة قصيرة في حدود امكانياتي وقدرتي حول القوانين النظرية والأسس الاحتمالية لما بعد الطبيعة في فيزياء (ما في الطبيعة) نيوتون^(١) لا يخلو من فائدة، ذلك أن أسلوب نيوتون العلمي وإن كان موضع قبول أكثر العلماء في القرون الأخيرة وحتى أوائل القرن العشرين، ويعتبر نموذجاً كاملاً تقريباً للتفكير العلمي الجديد؛ فمما يلفت الانتباه أنه يمكن ولو بشكل عام تمييز علاقة هذا الأسلوب العلمي بالقوانين النظرية لما بعد الطبيعة والذي يحتمل أن يكون أساساً له.

ولإدراك الروح المسيطرة على العلوم الحديثة من الناحية التاريخية لابد من العودة إلى بداية ظهورها. صحيح أن جزئيات التفكير في فترة تجديد الحياة الثقافية في الغرب (الربع الأخير من القرن الخامس عشر والثلاثين الأولان من القرن السادس عشر الميلاديين) تكونت في القرون الوسطى، إلا أن هذه الفترة في ذاتها ومن حيث المجموع لها خصائص لا يمكن فهمها دون الإهتمام بخطة العلوم الحديثة، أكان ذلك من الناحية الفلسفية أو من الناحية العلمية.

وبغض النظر عن تطور أسلوب البحث العلمي الذي كان يعتمد في هذه الفترة على المشاهدة والتجربة على الأكثر، فإن من الخصائص المتعلقة بالروح المسيطرة على أذهان ذلك العصر طبقاً لتحليلات المؤرخ والفيلسوف المعاصر الفرنسي كوايره^(٢)، هي عبارة عن:

١- زوال التصور الذي كان في ذهن البشري عن النظام الكوني^(٣)، أي زوال العالم المتناهي الذي يشتمل على سلسلة من المراتب المنظمة الأرسطائية وإحلال تصور عالم^(٤) غير متناه محله؛ عالم يبدو أن له قوانين واحدة ومنظمة بسبب وحدة عناصره المتشكلة واتحاد شكله.

٢- هندسة المكان وكونه كمياً^(٥)، أي استبدال تصور مكان انضمامي (والذي هو مجموعة من الأجواء والأماكن)^(٦) الأرسطائية بمكان انتزاعي ومتجانس من الهندسة الأقليدية، تتصور ماهيتها من حيث هي ومطلقة ولا بشرط. ولا بد من القول هنا أن المكان في السنة الأرسطائية ليس

دقيقاً للعلم؛ وبدلاً من أن يتحرر العلم في الواقع من الصنمية التي طرحها بيكن، فقد استبدل بصنمية متحجرة بنفيه أحياناً للمستقبل وامكانياته الآتية، واتجاهه الانحصاري في الفن والصناعة؛ لكن الفلسفة لم تحفظ استقلالها بالنسبة إلى العلم فقط، بل استطاعت في الفترة الحديثة - ولا سيما في ألمانيا - أن ترسم للعلماء أبعاداً جديدة للبحث العلمي وامكانية فهم أعمق للمسائل وأن تفتح أمامهم آفاقاً جديدة.

ونحن هنا لا نسعى إلى دراسة العلاقة بين الفلسفة والعلم - أكان ذلك من حيث إمكان اتحادهما أو من حيث التناقض الاضطراري والأصولي بينهما - في إطار الثقافة الغربية فقط، بل إن رأينا في الواقع - بالنظر إلى التغرب الذي يبدو في ثقافة إيران الحالية إن أمكن لنا هذا التعبير مقابل التغرب عامة - يتجه بشكل غير مباشر إلى نقطة أساسية هي أن نفي التفكير بأي حجة كانت لا ينتهي بنا إلى نفي الفلسفة فقط، بل في الواقع رد العلم نفسه، حتى إذا تم هذا الأمر في الظاهر باسم العلم واصطلاحاً من أجل حفظه.

أمّا فيما يتعلق بما يعبر عنه في إيران بالانبهار العلمي، فيمكن أن نجد له من الناحية التاريخية أسباباً اجتماعية وسياسية ونفسية، إلا أن المسائل الثقافية في إيران الحالية معقدة وذات جوانب مختلفة ومتناقضة على الأغلب إلى حد أنه لا يمكن تصور الحصول على تحليل كامل لها في هذا الشأن، كما لا يمكن الوصول إلى وحدة نظر مستقلة فيها بسبب الاتجاهات السياسية القائمة؛ ولكن يتضح بالانتباه والمشاهدة العادية بسهولة أن إحدى ميزات الأوضاع الثقافية للفترة المعاصرة في إيران إنه أصبح للفظ العلم - سيما بعد ظهور العلوم الانسانية - بشكل ما معنى مبهماً وغير مميز، بحيث لا يمكن تعيين حد وشكل له بالصورة المتعارف عليها. ولم يحصل هذا الإبهام لأن معناه اختلط بتصور المنتجات الفنية والصناعية التي لا بد من الحاجة إليها أو يبدو بشكل كاذب أن المجتمع الإستهلاكي بحاجة إليها، أو لأن المعنى العام لهذه الكلمة أصبح عاماً بشكل أصبح يستعمل في كل حالة في محله وغير محله وآل معناه الخاص إلى النسيان، وإتيا أصبح العلم عاملاً مانعاً له وسبباً لانحطاط الفكر والتفكير السطحي بدلاً من أن يكون عملياً نوعاً من الضابطة لتمييز الصحيح من غير

الأذهان العلمية. فإذا كان ديكارت مثلاً لا يقبل بالجزء الذي لا يتجزأ والخلا، إلا أنه يرى على أي حال أن الإمتداد^(٨) جوهر جسماني، وأن الحركة متجانسة ويمكن قياسها، ويرى في النتيجة أن مطالعة الأمور الجسمانية يمكن أن تتحول إلى مطالعة الحركة أي علم الحيل (الميكانيك) وهذا العلم إلى الهندسة، والهندسة إلى الرياضيات المحضة. فالعالم الذي ينظر إليه ديكارت، هندسي وميكانيكي، ويمكن معرفة هذا العالم ومحاسبته بالأسلوب الرياضي المعقول، وبشكل كمّي. ولا شك في أن الرياضيات خلافاً للسنة الأفلاطونية لم تعد مدخلاً للإرتقاء إلى عالم المثل، وإنما هي أسلوب دقيق جداً يمكن بواسطتها تحليل وتركيب واستقصاء عالم الناسوت على أساس تصوّرات واضحة ومتمايزة أي بديهية.

وليس بين نيوتون وديكارت والديكارتين اختلاف في معارضته لطبيعات أرسطو، والكشف عن مدى فائدة الرياضيات، ولكن اختلافهما على الأكثر ينبع من أن نيوتون لا يقدّم النظرية العقلية على التجربة، ولا قيمة لها وحدها، وطالما أنه لا يمكن تطبيق الرياضيات على الحوادث الطبيعية فلا يمكن الوصول إلى حقائق قيمة، أي لا يمكن استنتاج الشروط الأولية للحوادث الطبيعية لنفسها بواسطة الرياضيات؛ وبعبارة أخرى فإن الأولية لا تنشأ دائماً مع النتائج التجريبية واليقين من الرياضيات المحضة، وإنما إثر الإستفادة منها والمحاسبة الدقيقة لحوادث الطبيعة الرئيسة كحركة السيارات والوزن والجزر والمد وغيرها، أي من نفس النتائج التجريبية الخارجية. وقد بين نيوتون باختراعه لحساب فلوكسون^(٩) الذي يعتبر ترجيحاً دقيقاً ومنسجماً لعلم الحيل (الميكانيك) الجديد أن هذا الحساب يبين كهندسة ديكارت التحليلية وضع عظيم في لحظة خاصة فقط، وإنما يبين شدته وجهته أيضاً خلال التغير في تلك اللحظة. وكما أشرنا سابقاً فقد جعل ديكارت علم الحيل تابعاً للهندسة، بينما لا يمكن استنتاج علم الحيل من الهندسة أو تحويله إليها؛ بل يمكن على العكس جعل الهندسة تابعة لعلم الحيل. والخلاصة: أن العقل عند ديكارت والديكارتين، سيّما العقل الرياضي يبدو قادراً على إعادة كلّ المسائل إليه وأن يصل بلا واسطة إلى الحقائق اليقينية في بطن الطبيعة، بينما يرى نيوتون وأتباعه أن الوصول

في الواقع شيئاً سوى المكان والحيز وهو في داخل العالم ويمكن تصوّره بشرط الأشياء وليس خارج العالم الموجود خلاً ولا ملاً. والمشكلة الأساسية في الطبيعيات الأرسطائية أنه يجب أن يضع بأي شكل في نظامه الفكري هندسة أقليدسية داخل عالم غير أقليدسي، أي وضعه في مكان له انحناء من حيث ما بعد الطبيعة ولكنه مختلط من حيث الطبيعة. يقول كوايره في هذا الصدد: «ليس للعالم الأرسطائي انحناء هندسي، ولكن يمكن القول أن له انحناء في شكل ما بعد الطبيعة»^(٧).

ونحن نعلم ولا شك أن أرسطو قلماً يهتم بالرياضيات، وليست الهندسة عنده علماً أساسياً في معرفة الواقع، لأنها لا تحيط بذاتيات الموجودات. فالهندسة في رأيه هي علم انتزاعي بحث ولا يمكن أن تلعب دوراً مهماً في الطبيعيات التي هي العلم بالموجودات. والإدراك في بحث المعرفة المطابق للسنة الأرسطائية حيّ وتجري ويشكل أساس ودعامة العلم بالموجودات الواقعية، وليس بالنظر والإستدلال الرياضي كما تقدّم.

والشخصيات العلمية الكبيرة في العصر الحديث مثل كوبرنيك وكوبلر وغاليليو وغيرهم لم يعودوا وارثين لطبيعيات أرسطو، ذلك أنه لا يمكن قياس انحناء العالم في طبيعيات أرسطو ولا حركته. ولكنهم وارثوا أقليدس وأرخميدس إلى حدّ ما، ويمكن لروح العلم في زمانهم أن يجد بأبحاثهم أبعاداً هندسية وميكانيكية أيضاً.

ويبدو في القرن السابع عشر الميلادي بشكل صريح، اهتمام أكبر بالنظرة الرياضية (في السنة الفيثاغورية والأفلاطونية) من جهة، وبطبيعيات ديمقراطيس من جهة أخرى، وبإدغام كلّ منهما في الآخر. حيث يمكن تصوّر الأجزاء التي لا تتجزأ والتي لا يقبل ديمقراطيس غيرها، في فضاء أقليدسي غير متناه وفي حركة ميكانيكية أرخميدسية. وكأنه يمكن في هذه الفضاء غير المادي دراسة القوانين المسيطرة على هذه الأجزاء المادية التي لا تتجزأ بشكل دقيق وبصورة تجريبية ورياضية.

ولاشك في وجود اختلافات بينة وأساسية بين مفكري وعلماء ذلك العصر، في النظرة والأسلوب، ولكن يمكن بالمقابل القول باطمئنان أن روحاً واحدة تسيطر إلى حدّ ما على

حوادث الطبيعة على قانونين أو ثلاثة قوانين كلية للحركة، ويمكن في بيان الأمور أن نشير إلى أن الآثار البادية في الأمور الجسمانية قائمة ومبنية على هذه القوانين. وحتى إن لم نستطع بيان علل هذه القوانين، فإن هذا الأمر دال على تقدم كبير في فلسفة الطبيعة. والانتشار الواسع لقوانين الحركة هذه في العالم دليل بارز على أنه مسلم بها ولا حاجة إلى البحث عن عللها.

والنوع البارز لهذه القوانين والأصول أو العلل الميكانيكية الكلية تماماً والتي تشمل جزئيات لا تخصي هي الجاذبية^(١٤) والتي هي على الأكثر تابع رياضي بسيط له علاقة مباشرة مع الكتلة^(١٥) ورابطة عكسية مع مربع المسافة. ونيوتون ولا شك لا يبين في كتاب الأصول خلافاً لما يتصوره العامة، نظرية حول علة قانون الجاذبية. ويقول: «لم أستطع حتى الآن أن أستنتج من الحوادث نفسها سبب الخصائص المتعلقة بالجاذبية بشكل صحيح، ولذلك لم أتعرض لبيان أي نظرية أو حدس في هذه الحالة». ولكنه يبين في كتاب علم البصريات^(١٦) (وذلك في الطبعة الثانية فما بعد) أنه يرى المسألة باللجوء إلى البيان العلمي الذي يراها غير القوانين الميكانيكية: «لا يتصور أنني أظن أن الجاذبية في عداد الأوصاف الذاتية للأجسام، وكأن علة الجاذبية من خصائص الجسم نفسه»، ولكن الجاذبية معلول طبيعي لضغط المكان ومرونة الأثير الذي توجد فيه الأشياء. فنيوتون يعتقد بأن الفلسفة يجب ألا تكتفي وحدها ببيان القوانين العلمية وإنما عليها أن تعالج البحث عن العلل الفاعلية أيضاً، العلل الفاعلية القادرة على البيان الوجودي للقوانين الكلية. ويرى أن هناك علاقة بين القوانين والعلل يمكن الوصول إليها. حتى أن الفلسفة التجريبية يمكن أن تقرّبنا من معرفة العلة الأولية. ويقول: «إذا لم يهدنا كل تقدم واقعي في هذه الفلسفة فوراً إلى معرفة العلة الأولى، فمن المؤكد أنه سيهدينا بالمقابل إليها بطريقة أصح، وهذا الأمر أفضل من كل نوع حدس تصور اضافيين»^(١٧).

ونيوتون يقف تماماً على الفرق بين القوانين الميكانيكية والعلل الفاعلية، وقد أوضح في كتبه الأساسية على الأكثر رياضية القوانين الكلية التي تبين العلاقة بين الحوادث، ماعدا نظرية أو نظريتين في الفيزياء «بحث الأثير في علم الحيل،

إلى الحقائق يمكن عن طريق التجربة وعلى أساس المشاهدة والإختبار ثم التعبير عنها بقالب ولغة رياضية، أي أن الدرجات التي وضعها ديكارت بين العلوم من الناحية العقلية هي معكوسة في نظام فكر نيوتون العلمي. فنيوتون يسعى إلى حفظ الإتصال الدائم الذي تم الحصول عليه عن طريق المشاهدة والتجربة بين القوانين الرياضية مع الواقعية الخارجية المحسوسة. ويبدو وجود نوع من اليقين العقلي المطلق لما بعد الطبيعة في نظرة وأسلوب ديكارت والديكارتيين، يسعى نيوتون عملياً إلى طرحه جانباً في بحثه العلمي. وكان روبرت بويل^(١٨) يصر قبل انتشار كتاب الأصول لنيوتون على أنه يجب بيان النظريات العلمية بأي نحو مستقلة عن كل نظرية لما بعد الطبيعة ودراستها، ويجب ألا يفرض العلماء اعتقاداتهم فيما بعد الطبيعة في بيان الحوادث. وكان بويل نفسه يقول بنظرية الجزء الذي لا يتجزأ وكان تبعاً لجان لاك يقبل الواقعية العينية للأوصاف الأولية في التصورات البسيطة من وجهة النظر الفلسفية ويعتبرها من نوع العظم^(١٩) والصورة^(٢٠) والحركة^(٢١).

وقد نجح إسحاق نيوتون بعد كارل بويل: في توضيح المتعلق والموضوع الخاص لما يسميه نفسه بفلسفة الطبيعة والأسلوب المناسب له على أساس التجربة ويقول: «الطريقة التحليلية عبارة على الاهتمام بالنتائج التجريبية والمشاهدة الدقيقة للحوادث. واستتساخ النتائج الكلية عن طريق الاستقراء. ويجب عدم قبول أي رأي يخالف ما لم يكن حاصلاً عن تجارب أخرى أو حقائق يقينية أخرى... وطالما لم تثبت الحوادث خلاف هذا الرأي أمكن منحها، صفة الكلية، وإذا وقعت حادثة خلاف هذه الكلية، وجب ذكر هذه الحالة الشاذة في النتيجة الكلية. ويمكن عن طريق هذا التحليل، الانتقال بشكل عقلي من الأمور المركبة إلى البسيطة، ومن الحركة إلى المحرك، ومن المعلول إلى العلة، ومن العلل الجزئية إلى العلل الكلية وبالتالي الحصول على أكثر العلل كلية.

والعلل القريبة التي يبحث فيها الفيلسوف عند نيوتون هي «القوانين الكلية للحركة» والعلل الميكانيكية التي يجب ألا يشتبه بينها وبين العلل الفاعلية التي هي موضع نظر فيما بعد الطبيعة الأرسطائية، ويقول في هذا الصدد: «يتم الحصول من

ونظرية انتشار النور^(١٨) في كتاب علم البصريّات». فطريقة نيوتون بالمعنى الدقيق للكلمة هي نفس طريقة غاليله واستمرارها. ورغم ما قيل، لم يعد يعبر عن الجاذبية بعد نيوتون وبعد زيادة الإطلاع على آثاره تدريجياً وانتشارها على أنها كما هو متداول تابع رياضي بسيط من الناحية التاريخية، بل ينظرون إليها على الأكثر باعتبارها علّة طبيعية وبشكل خصيصاً انضمامية مادية. كما اهتم ديفيد هيوم في فلسفته بنيوتون، واستفاد من أفكاره. فقد قارن بين نظرية تداعي الصور النفسية^(١٩) وبين قانون الجاذبية؛ بمعنى أنّ نظرية الجاذبية العامة لنيوتون كانت موضع اهتمام الطبيعيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر الميلادي أمثال جان جاك روسو. كما ازداد بالمقابل الإهتمام بالفكر النيوتوني الذي عولج جانبه العلمي معالجة مستفيضة في علم الفيزياء (ما في الطبيعة) والرياضيات وبحذف ناحية ما بعد الطبيعة المتعلقة به. بينما اهتم نيوتون بالناحيتين معاً دون أن يخلط بينهما. ونحن نعلم جيداً من الناحية التاريخية أنّ نيوتون كان في حياته الشخصية مؤمناً شديد الايمان، ومخالفاً عنيداً للإلحاد، حتى إنه كان يميل إلى العرفان؛ وتنتهي نظريته إلى ما في الطبيعة بنحو ما إلى نوع من علم الكلام. فهو يرى أنّ العالم كلّهُ إن كان تابعاً للقوانين الميكانيكية فإنّ جميع أموره ستكون تابعة لعلّة ليست في حدود الميكانيك البحث. ونظام العالم يحكي نوعاً من وحدة الأمور، فالأجسام تؤول إلى الأنوار والأنوار إلى الأجسام. وفي العالم كلّهُ روح حياتية كلية واحدة ربّما نقلها شهاب إلى الأرض. وهذه الروح تسري وتجري في جميع الأجسام. ويتصوّر نيوتون أنّ الفعل الإلهي يشاهد في كل مكان. فسبب المسافة الكبيرة جداً بين السيارات مثلاً تبين أنّ إرادة الخالق تقضي بالحيولة دون الفوضى الكلية التي يحتمل أن تنشأ من سقوط وتصادم السيارات بعضها ببعض. واللّه تعالى هو الذي أقرّ قوانين الطبيعة الكلية. واللّه موجود في كلّ مكان وزمان. والزمان والمكان المطلق ولا بشرط دليل على حضور اللّه في كل مكان وفي كل وقت دون أن نعلم علّة ذلك وكيف يكون. كل شيء في اللّه والعالم انعكاس لوحداثيته وعلمه ورحمته اللامتناهية. وقد تجاوز نيوتون هذا أيضاً، وقارن أفكاره الدينية مع كتاب التوراة - الذي كان يطالعه في كل ليلة - مباشرة. فربّ نيوتون ذلك

الخالق. والناظم والحافظ الذي ربّ مواد العالم ونسّقها بشكل تبقى في حالة ثابتة وفي حركة مستمرة. وعلى كل حال فمن الواضح أنّ ما في الطبيعة عند نيوتون تنتهي شئنا أو أبينا إلى نوع من علم الكلام وعلم اللاهوت. ولا شك في أنّ هذه الناحية من نظريات نيوتون نالت اهتماماً سيراً جداً، ولم يجد أكثر علماء الطبيعة عملياً أي علاقة معقولة بين أقواله العلمية والكلامية، أو أنّهم رأوا أنّ الرابطة بينها ضعيفة جداً ولا قيمة لها، وأشاروا إلى أنّ هذه الناحية من تفكير نيوتون شخصية وخصوصية تماماً بينما عرّفوا بالمقابل وعملياً وفي الدرجة الأولى أنّه أحد المؤسسين الأساسيين للنظرة المادية والطبيعية في العصر الحديث. أمّا في القرن العشرين فقد ضعّف أثر البحوث والنظريات الفيزيائية الجديدة قاطية العلم النيوتوني؛ ولم تتعرّض قواعد وأسس نظامه الفكري للنقد وأصبح موضع بحث من الناحية العملية فقط، بل ظهر أنّه يوجد على كل حال عند كل عالم وباحث من الناحية النظرية نوع من الاتجاه الفلسفي على الأقل، دون غرض النظر عن القيمة المباشرة لاكتشافاتهم التجريبية. وإذا كان نيوتون - كما أشرنا سابقاً - يعتبر نموذجاً كاملاً للنظرة العلمية في العصر الحديث، وإذا كان من المحتمل أن يشاهد في أفكاره المبادئ الفكرية لفئة كبيرة من علماء هذا العصر دفعة واحدة وبشكل متشكّل ومتبلور، فمن الواجب أن نوازن بين اعتقادات ما بعد الطبيعة عند نيوتن وبين أصول تفكيره العلمي المحض وأن نحصل عن هذا الطريق إن أمكن على الأساس النظري لما بعد الطبيعة في فيزيائه (ما في الطبيعة)، بدلاً من أن نعتبر هذه الاعتقادات - كـ بعض المؤرخين التحصيليين - شخصية وخصوصية صرفاً.

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الخطوط الأساسية لحياة نيوتون، وعلمنا أنّ نيوتون تلقّى دراسته الجامعية في كامبريدج ودرّس فيها، وأنّ أفكاره ازدهرت وأثمرت خاصة في جوّ هذه المدينة الجامعية الثقافي أمكننا عن هذا الطريق أن نوضح المسألة من الناحية التاريخية على الأقل.

فقد كان ينتشر في القرن السابع عشر الميلادي بمدينة كامبريدج نوع من التفكير الأفلاطوني وربّما من الأفضل أن نقول من التفكير الأفلاطوني الجديد بين مدرّسي وأساتذة علم الكلام والفلسفة. ولذلك أشير إليهم بصورة عامة في كتب

تاريخ الفلسفة المتداولة اصطلاحاً باسم أفلاطوني كامبريج. ولم يكن نيوتون يتعلّق بهذه الفئة لاعتقاداته العرفانية والدينية فقط، بل كان مطلعاً بشكل دقيق على أفكارهم ولا سيّما أفكار هنري مور^(٢٠) بشكل مباشر. وليست آراء نيوتون العرفانية والدينية تكررّاً إلى حدّ ما لأفكار هنري مور الكلامية والفلسفية والعرفانية فقط، بل يحتمل أن تكون المبادئ العلمية النظرية عند نيوتون قد استلهمت من هذه الأفكار أيضاً. وإذا ما حلّلنا جيّداً القوانين الطبيعية العالمية عند نيوتون فإننا نواجه إلى حدّ ما أفكار هنري مور، ذلك أن نيوتون كان في الواقع يأخذ بنظر الاعتبار القوانين الأولية لعلم الحيل (الميكانيك) بنظرته إلى مابعد الطبيعة. وهو يرى كهنري مور أن المكان مطلق وأزلي، وهذا من الواقعية في مابعد الطبيعة منفصل عن الله، ولكنه قديم بالنسبة إلى العالم؛ وإذا لم يكن كذلك، لكان من الواجب أن يكون عالم الموجودات أزلياً. والمكان والزمان المطلقين ولا بشرط لا يتبعان إرادة الله وفعله، بل يتبعان ذاته. والزمان المطلق عقلياً قديم أيضاً بالنسبة إلى الأمور الانضمامية وحتى إنّ الحركة المطلقة أيضاً غير الحركات النسبية التي ندركها. أي غير النقل والإنتقالات التي تتناسب مع وضعنا. فتجارب نيوتون العلمية وحساباته الرياضية تتحقّق وتصل إلى النتيجة على أساس مطلقة المكان والزمان والحركة وتجانسها التي تبدو في الواقع خارج العالم المادي وتحيط بها الحوادث الجزئية. والحقيقة أنّه يشاهد في الجو العام لتفكير نيوتون كلاً تأثير هنري مور. وجان لاك المباشر. (كان نيوتون يعرف جان لاك واقتدى به في أسلوب تجاربه)، وهذا ما أوجب في الواقع أن تكون فيزياء نيوتون اليوم أكثر تعقيداً عملياً وفهماً أصعب ممّا كانت تبدو عليه في البداية. وينشأ التعارض في آراء نيوتون من الاختلاف بين أفكار هنري مور وجان لاك. وكأنتنا نتخيّر لجان لاك من جهة ونعتبر النتائج التجريبية والحسية يقينية (مع افتراض جوهر مجهول)، ونضطر من جهة أخرى إلى أن نبنى الفيزياء على أساس قوانين هنري مور التي هي مابعد الطبيعية بحثاً.

وكما أشر سابقاً، إذا كانت المشكلة الأساسية في طبيعيات أرسطو في أنه يجب وضع الهندسة الأفليدية بنحو ما في داخل العالم غير الأفليدي فإن مشكلة فيزياء نيوتون أيضاً أنّه

مضطر أن يطالع العالم المحسوس والواقعي في جوّ الهندسة الأفليدية اللامتناهي رغم أن طريقته معاكسة تماماً للنظرة الأرسطائية. فنظرات هذين الاثنين وتفكيرهما وأسلوبهما متعاكسة، ولكن المشكلة الأصلية موجودة على كل حال عند كليهما. والإهتمام بهذه النقطة يشير من جهة إلى عمق ولحدّ ما إلى صحّة تناقض القوانين^(٢١) عند كانت حول المكان والزمان ولا بشرط وماتقدّم، ويبرهن من جهة أخرى على حاجة انشتاين إلى اللجوء لنظرية جديدة أخرى هي النسبية.

وبعد نيوتون، وفي الوقت الذي وجدت نظريته العلمية قبولاً على الأكثر في حدود ومعرفة الحوادث، وطريقته في حدود نوع من اصالة التسمية للرياضيات^(٢٢)، فإن نظام مابعد الطبيعة عنده وجد تناقضاً تاماً من الناحية العملية مع الأنظمة الأخرى لما بعد الطبيعة. ولما كانت مابعد الطبيعة هذه تحتاج إلى قبول المكان والزمان والحركة المطلقة ولكن بالمعنى الواقعي، لذلك فإنّها وجدت اختلافاً شديداً مع أقوال لايبنيز^(٢٣) وبركلي^(٢٤) (مع أن بركلي كان يثني دائماً على نيوتون). ثم نبعت كما أشرنا من قبل تناقضات كانت في الفلسفة المثالية من مشكلات نيوتون الفيزيائية ذلك أن كانت كان يرضى بفيزياء نيوتون وطريقته الرياضية في حدّ الفاهمة (لا حدّ العقل)، ولكنه أدرك أن مابعد الطبيعة يقوم على المكان والزمان والحركة المطلقة ممّا اضطرّه إلى تجاوز الفاهمة البشرية والمبادرة إلى معالجة ذلك بالأسلوب الكلامي المثالي أي أن كانت كان في الواقع يرى بصورة غير مباشرة أنّه يمكن طرح افكار نيوتون فيما بعد الطبيعة والمستلهم من هنري مور بشكل تناقضات فقط. والحقيقة أن فلسفة كانت الثالثة لم تصل بنفسها إلى التناقض بل إنّ هذه التناقضات توجد في أساس فيزياء نيوتون وفي باطنها وبشكل ضمني. فتناقضات كانت الكلامية انعكاس مباشر للمشكلات الموجودة في فيزياء نيوتون، دون أن يتم بيانها بصراحة.

إنّ تاريخ تطوّر العلم والفلسفة في العصر الحديث أخذ شيئاً فشيئاً يفصل أكثر من ذي قبل بين فيزياء نيوتون ومابعد الطبيعة عنده ويرى أن الأولى معتبرة والثانية لا قيمة لها. وذلك نتيجة للتأثر بالفكر التحصيلي الذي يدّعي في الواقع أنّه يقتدي بنيوتون. وكما أشرنا سابقاً فقد أصبح من الممكن طرح

العلم الجديد والاسس النظرية لما بعد الطبيعة في فيزياء إسحاق نيوتون

3. Cosmos.

4. univers.

5. espace.

6. Lieu.

٧ - يمكن الرجوع إلى الكتاب المذكور لكوايره.

8. étendue.

9. Fluxions.

١٠ - Robert Boyle (١٦٢٧ - ١٠٦٩١): عالم انجليزي في علم الطبيعة والكيمياء.

11. grandeur.

12. figure.

13. mouvement.

14. gravitation - attraction.

15. masse.

16. Optique.

١٧ - لقد استفدت من بعض هذه النصوص باللغة اللاتينية، بمساعدة زميلي المحترم الدكتور يانوسي، وأرى من الواجب هنا أن أشكره.

18. émission.

19. association des idées.

٢٠ - Henry More (١٦١٤ - ١٦٨٧): متكلم وفيلسوف انجليزي درس في

كامبريدج ودرس فيها، كان يهتم بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة وبالقبالة (cabale - أي السنة التفسيرية والتأويلية الرمزية للتوراة

التي وإن قيل أنها وصلت عن لسان إبراهيم، إلا أنها من أعمال القرون

الوسطى). وقد أدى تفكير هنري مور إلى نوع من الأصاله

الروحية المنحضة والتعصّف. وطُبعت ونشرت دورة كاملة لأثاره باللغة اللاتينية

تحت عنوان الآثار الكلامية (opera theologia) عام ١٦٧٥ م،

والقسم الآخر منها تحت عنوان الآثار الفلسفية (opera philosophica)

عام ١٦٧٨ م.

21. antinomies.

22. nominalism mathématique

23. Leibniz

24. Berkeley

25. axiomes.

26. postulats.

أهم المصادر باللغات الأجنبية:

1. Bréhier, E., **Histoire de La philosophie**, Paris, 1933.
2. Koyré, A., **Etudes d'histoire de La pensée philosophique**, Paris, 1961.
3. Maréchal, J., **Précis d'histoire de La philosophie moderne**, Paris, 1951.
4. Newton, I., **Mathematical principles of Natural philosophy of word.**
5. Rivaud, A., **Histoire de La philosophie**, Paris, 1950.

المسائل المرتبطة بالعلاقة الذاتية والأصولية لما بعد الطبيعة عند نيوتون مع فيزيائه بعد ظهور النظرية النسبية في القرن العشرين فقط.

فما هي النتيجة التي يمكن الوصول إليها من كل ما مرّ وبالنظر إلى ماورد في مقدمة هذه المقالة؟ يمكننا القول مع كوايره إلى حدّ ما دون إنكار قيمة الاكتشافات العلمية الجديدة وأهميتها وحتى الصناعية والفنية في العصر الحديث:

١- لا ينفصل التفكير العلمي بالمعنى الدقيق للكلمة من الناحية النظرية وبصورة كلية ومطلقة عن التفكير الفلسفي.

٢- تحدث التطورات العلمية الكبرى دائماً بمساعدة تغيير المفاهيم الفلسفية.

٣- لم يظهر التفكير العلمي - سيّما التفكير المتعلّق بما في الطبيعة - بلا مقدمة وابتداء بساكن، بل يظهر دائماً في باطن وإطار الأفكار والأوليات الأساسية والمتعارفات^(٢٥) والأصول الموضوعية^(٢٦) التي تبحث فيها الفلسفة بشكل ذاتي.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ ممّا لا شك فيه إنّ كلّ عالم لا يميل إلى البحث في المسائل العلمية الجديدة والبحوث البكر في إطار ثقافة خاصّة فقط، بل إنه يعتمد عملياً على تفكير فلسفي يشكّل إلى حدّ ما الأساس لتفكيره العلمي، حتى إذا كان هذا التفكير يتّجه في الظاهر إلى ردّ الفلسفة الرائجة آنذاك. وإذا وجب اعتبار العلم منفصلاً عن الفلسفة وأنّ ما قال عنه بعضهم أنّه فلسفة علمية ليس في الواقع علماً ولا فلسفة، وبالمقابل نفس البحث العلمي، ليس فقط في العلوم الانسانية، بل وحتى ربّما بالأخص في علوم الطبيعة بالمعنى الدقيق للكلمة يعتمد بأيّ طريقة على التفكير الفلسفي ويستمد روحه واتجاهه منها، إلى حدّ إنّ كلّ مايسمّى علماً هو بدون هذا التفكير صورة فقط بلا محتوى من العلم، وربّما - يجب القول للأسف - أنّه لفظ في يد الذين لم يدركوا معناه الدقيق.

المصادر والهوامش:

1. Issac Newton.

٢ - يمكن الرجوع إلى كتاب A. Koyré (كوايره) بهذا العنوان:

Etudes d'histoire. La pensée philosophique, paris, 1961.